



# الحياة الثقافية والتعليم في ولاية الحجاز في العهد المكاتب، الزوايا الصوفية، المطابع ودور النشر»

هند أبو الشعر

مقدمة

مع أن لولاية الحجاز وزنها المعنوي الكبير في الفترة العثمانية المتأخرة، وعلى وجه الخصوص في عهد التنظيمات، إلا أن المكتبة التاريخية تفتقر إلى دراسات تتناول الجوانب الاجتماعية والثقافية فيها، حيث تغيب صورة الحياة الفكرية، والفعاليات الثقافية الغنية والتي تمثل خصوصية هذه الولاية، على الرغم من توفر المصادر المتعددة والمباشرة، والتي تمدنا بمعلومات وافرة عن التعليم فيها، ومن أهم هذه المصادر، السالنامات الرسمية، والتي ترصد المكاتب الصيبانية، والمدارس الرشدية، مبينة مواقعها وعدد معلميها وتخصصاتهم، وعدد طلبتها، ومواد التعليم فيها، وأسماء شيوخها وعلمائها، وتكمل هذه الصورة الدقيقة، المادة التي تمدنا بها كتب التراجم والمصادر التاريخية، حيث يمكن للدارس أن يتتبع تطور التعليم في ولاية الحجاز ابتداء من القرن العاشر الهجري - الخامس الميلادي، وحتى انهيار الدولة العثمانية وسقوطها عام ١٩١٨ م.

العربية، ونشأ في الهند بالذات مركز لنشر الكتب العربية، وتعليم اللغة ودراساتها، ومع أن التعليم بداية انصبَّ على الجوانب الدينية واللغوية، إلا أن المعلمين الهنود والبنغاليين لعبوا دوراً إيجابياً في إدخال العلوم الطبية والعلوم البحتة إلى المناهج في مدارس الولاية،

وابتداءً، فقد ارتبط التعليم في الولاية بالمساجد، وهو أمر طبيعي، إلا أن نسبة كبيرة من غير العرب، وخاصة من الهنود والجاويين (الأندونيسيين) كانوا بين الطلبة والمدرسين، وفي وقت متأخر لعبت الهند وجاوة دوراً واضحاً في دعم الاهتمام باللغة

# هد الشريفي من ١٨٠٠م - ١٩١٨م «المدارس»

١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م، تعدد أسماء أربع مدارس (مكاتب صبيان) هي : السليمانية، الداودية، شهيد محمد باشا، محمود دية، وتشير إلى أن عددها الكامل يبلغ (٣٣) مكتباً، الا انها لا تذكر أسماءها. كذلك يرد ذكر لتسع مكاتب صبيان في جدة، ومكتب رشدي واحد، أما في المدينة المنورة فيذكر مكتب رشدي واحد فيه (٣٩) تلميذاً، وبلغ عدد طلاب نفس المدرسة سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م (٤٠) تلميذاً فقط. في حين وجدت مدرسة رشدية واحدة في الطائف في نفس هذه السنة، وأربعة مكاتب صبيان، لا تورد السالنامات تعداد طلبتها.

وتحدد السالنامات أعداد المعلمين في كل مدرسة، ويفهم منها أن العدد يبلغ ثلاثة معلمين في كل منها؛ معلم أول ومعلم ثان، ومعلم رقة، ويلحق بالمدرسة أحياناً (بواب) للمدرسة، الا ان عدد التلاميذ لم يتجاوز الأربعين في أي من هذه المدارس، عدا مرة واحدة، فقد بلغ (٥٥) تلميذاً في مدرسة مكة الرشدية سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م.

ويمكن تتبع شيوخ مدارس مكة بشكل خاص، ومعرفة أساليب التعليم فيها، والمواد التي كانوا يقومون بتدريسها، ابتداءً بالقرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي، وحتى سقوط الدولة العثمانية في مطلع القرن الحالي، إذ تتوفر لنا مادة غنية وواسعة عن طريق مؤسس المدرسة الصولتية بمكة،

كما أنهم ساهموا في فتح مدارس خاصة وفي الإنفاق عليها، وخير نموذج على هذا الجهد المميز ما قام به الشيخ رحمة الله الهندي، والشيخ محمد علي زينل رضا، اللذان أنفقا على التعليم في المدارس التي قاما بإنشائها، وادخلا إليها الترجمات الهندية، إلى أن دخلت الولاية عهد التعليم الحكومي المنظم. كذلك تميّز التعليم في الولاية بالاهتمام بالتعليم التجاري، وقام تجار بندر جدة بدور جدير بالاهتمام في هذا المجال، فقد أنشأوا (البيوتات التجارية) والتي خدمت التجار، وأمدتهم بفئة مدربة من الموظفين المؤهلين للعمل في المتاجر الضخمة التي كانت تزخر بها أسواق جدة.

## المدارس في الولاية

عُرفت المدارس الابتدائية (مكاتب الصبيان) في ولاية الحجاز في وقت مبكر، وارتبطت ابتداءً بالحلقات في المساجد، والشيوخ المجاورين. وكان تأسيس أول مدرسة رشدية في الولاية سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٥ م، ويفهم مما تورده السالنامات من إحصائيات لولاية الحجاز، أن عدد المدارس في مكة المكرمة والمدينة المنورة كان كبيراً، قياساً على المدارس في الطائف وأجزاء الحجاز الأخرى، إذ لا يرد ذكر لأكثر من مدرسة رشدية واحدة في أي من المدن الحجازية، في الوقت الذي تذكر فيه مدارس ابتدائية كثيرة في مكة المكرمة، فسالنامة سنة



وأن الناس أحسوا بضرورة إنشاء مدارس خاصة تقوم بسد هذه الحاجة؛ يذكر السيد محمد علي زينل رضا، أنه لم يكن بمكة عدد كبير ممن يقرأون ويكتبون، فقد كان (الجمال) يقوم من مكة المكرمة بجماله، ومعه ورقة بها اسم الرجل الذي له البضاعة. فلا يجد من يحسن قراءة الورقة في يده. ويبدو أن عدداً من المدارس الخاصة انشئت مع مطلع القرن الرابع الهجري، مثل مدرسة الشيخ رحمة الله الهندي بالخندرية في مكة، ومدرسة السيد منصور بن الشيخ يحيى، ومدرسة المسعى، وهي تقابل (باب السلام)، أسسها محمد خياط بجوار باب الدربية، والمدرسة الصولتية، وهي من أوائل المدارس الخيرية الخاصة، والتي أنشئت في مكة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، من قبل بعض أثرياء الهنود المسلمين. وقد تزامن إنشاء هذه المدارس مع حدة سياسة التتريك التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي (وكان من أهم المدارس التي انشئت في هذه الفترة، مدرسة الفلاح بمكة، ومدرسة الفلاح بجدة، وذلك بجهود كبير من الحاج محمد علي زينل، بمساعدة الشيخ عبدالرؤوف جمجوم وشقيقه الشيخ محمد صالح جمجوم، واللذان قاما بجهود كبيرة في ظروف صعبة، وبدون ترخيص من الحكومة العثمانية، فقد بدءاً بالدراسة ليلاً، فكان الأخوة عبدالرؤوف ومحمد صالح جمجوم، يحضران الطلبة من بيوتهم ليلاً، ويعدّانهم إليها بعد انتهاء الدرس. وبسبب الصعوبات المالية التي واجهت مؤسس هذه المدارس الحاج علي زينل، هاجر إلى الهند للعمل هناك، وأسس محلاً لتجارة اللؤلؤ، مما ساعده على

والمدرس بالمسجد الحرام؛ "عبدالله مرداد أبو الخير"، والذي قام بجمع تراجم لـ (٦٠٤) من العلماء والمدرسين المكيين والمجاورين في كتابه المعروف (نشر النور في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر) حيث تساعدنا هذه المادة الواسعة على تحليل المذاهب والجنسيات لهؤلاء المعلمين المترجم لهم، ويبدو أن نسبة كبيرة منهم كانوا من غير العرب، وخاصة من الهنود، ومن الجاوات، أي من سكان الجزر الأندونيسية، ومن البنغال، والروم والداغستان وأهل بخارى وأهل شيراز والأرناؤوط، وأهل لاهور وبيشاور وأهل السند. كذلك يمكننا التعرف إلى مذاهبهم ومقارنة انتشار كل مذهب في الحلقات التي يقومون بالتدريس فيها، فمن بين (٦٠٤) من العلماء والمدرسين الذين تمت ترجمتهم، ذكرت مذاهب (١٩٥) منهم: كان منهم (٩٥) حنفياً، و (٨٤) شافعياً، و (١٤) مالكيّاً وحنبليّاً. ويبدو أن الجاوات كانوا من الشافعية، كذلك الحال مع المصريين؛ فكلهم وبلا استثناء هم من الشافعيين، وينطبق القول أيضاً على الداغستان، فهم أيضاً من الشافعيين، في حين كان المغاربة من أصحاب المذهب المالكي، أما الذين قدموا إلى الحجاز من السند، فكانوا كلهم من الاحناف. أما الذين عملوا بالتدريس في الحجاز من العرب، واستقروا بمكة المكرمة؛ فهم من المصريين واليمنيين وبعض الشاميين والمغاربة وقليل من البصريين من أهل العراق.

يبدو أن المدارس الرسمية العثمانية لم تلعب دوراً حقيقياً في نشر التعليم في الولاية،

والسالنات، أبو بكر ميرغني أفندي، والمعروف باسم شيخ أحمد أفندي، وشيخ محمد سعيد بابصيل أفندي، وسيد محضار سقاف، وشيخ رحمة الله أفندي هندي، وسيد محمد سيد محمد ميرغني، وسيد سالم عطاس، وشيخ محمد منصور، وشيخ عمر شامي، وشيخ حسين طيب، وشيخ مصطفى عفيفي، وسيد عمر شطا، وسيد عبدالله زواوي، وشيخ محمد سعيد اديمي، وشيخ موسى نقشبندي، وسيد أبو بكر شطا، وسعيد علي ميرغني، والشيخ عبدالرحمن الدهان، والمعلم نور الافغاني وهو أحد مدرسي مدارس الشيخ رحمة الله الهندي.

ويرد في سالنات سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م قائمة أخرى بأسماء (٥٦) مدرساً في مكة المكرمة من بينهم أسماء معروفة لمفتي المالكية والحنابلة والحنفية، وأسماء عائلات استقرت في مكة مثل : العطاس، الجبرتي بصراوي، بابصيل، باروم، شيببي، جمل الليل، زرعة، ومن معلمي المدرسة السلیمانیة المعروفين السيد أحمد الداغستاني، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي، وكان يتقاضى خمسين عثمانياً، ومن مدرسي المدرسة الداودية عبدالله سراج المفتي الرومي، ولا بد لنا من الإشارة إلى الدور الكبير للشرفاء في مكة بتشجيع العلم، ودعم المدرسين، وخاصة أيام الشريف الحسين ابن علي، والذي أسس مدرسة (المسعى) في باب الدريبة.

#### طرق التدريس وأساليبه

كان التدريس يتم في بداية الأمر في المساجد، وذلك لتدريس (البخاري ومسلم وكتب التصوف) ثم بدأوا بتدريس الفقه ابن

الاستمرار في تمويل هذه المدارس الخاصة، في أصعب الظروف، وتمكن من افتتاح فروع جديدة في دبي، والبحرين، وأخيراً افتتح فرعاً جديداً في بومبي. وكان يلحق بمدرسة الفلاح الأصلية في جده، مكان للاجتماعات، وأطلق عليها اسم (المدرسة التحضيرية أو المجتمع)، وقد استمر الحاج محمد علي زينل في الانفاق على هذه المدارس طيلة أربعين عاماً متتالية، وقد قامت هذه المدارس بتخريج مجموعة كبيرة من القيادات الفكرية والتربوية والدينية في الحجاز الى أن تم تحويلها الى مدرسة حكومية في العهد السعودي.

#### المعلمون والعلماء في مدارس الولاية

تمدنا السالنامات بمادة جيدة لأسماء المعلمين واعدادهم؛ وقد ورد في سالنات سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م، أن عدد معلمي إحدى المدارس عشرة، ومعهم (حافظ كتب)، وبلغ عددهم في إحدى المدارس أيضاً ستة معلمين. الا أن الغالبية العظمى من المدارس تضم ثلاثة معلمين فقط، اضافة الى معلم الرقعة، إن نظرة فاحصة مدققة إلى التركيبة الاجتماعية لمدينة مكة، وإلى نوعية المجاورين فيها، تساعدنا على معرفة شيوخها، من حيث جنسياتهم ومذاهبهم، وابتداء يتبين لنا أن حجم القادمين إلى مكة كان كبيراً ودائماً، وأن هؤلاء القادمين والمجاورين شاركوا في الحياة الفكرية والعلمية في المدينة، وفي أنحاء أخرى من الحجاز، ابتداء بالقرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي.

ومن أسماء الشيوخ المعلمين في الولاية والذين تتردد اسمائهم في المصادر



ويمكن أيضاً معرفة تفاصيل معينة عن حياة هؤلاء المعلمين فقد كانوا يتقاضون مبالغ رسمية من الحكومة العثمانية تبلغ خمسين عثمانياً، في حين تقاضي المعلم في المدرسة الخاصة راتبه من أصحاب المدرسة الذين ينفقون عليها، فقد كان المعلم نور الأفغاني يتقاضى راتبه من مدرسة الشيخ رحمة الله الهندي، والذي كان يعلم فيها، وكانت بعض المدارس الرسمية توفر لمعلميها المسكن في داخل المدرسة نفسها، كما هو الحال مع عبدالله سراج المفتي الرومي، الذي كان يدرس في المدرسة الداودية ويسكن في المدرسة أيضاً. وكان بعض هؤلاء يتحولون للتدريس في المسجد الحرام، ويتقاضون رواتبهم عندها من شريف مكة.

ويبدو أن مدة الدراسة تختلف من شيخ إلى آخر، وتختلف أيضاً بين المدارس الرسمية والمدارس الخاصة، فقد كان الطلبة يصحبون الشيخ حتى يعطيهم الإجازة، وكان الشيخ رحمة الله هندي يعطي الإجازة بعد أن يصحبه طلبته مدة ست سنين، ومن الشيوخ الذين اعطوا الإجازة سنة ١٢٠١ هـ/ ١٨٨٢ م، الشيخ حسن طيب، والشيخ أحمد العجل، والشيخ أبو بكر السيد سالم شيجان، والعلامة يحيى الشاري المغربي. ويلاحظ أن عدداً كبيراً من الجاوات كانوا يفدون لتلقي تعليمهم في مكة المكرمة، وأنهم اقتصوا بالدراسة على شيوخ بعينهم، فقد كان أكثر الذين درسوا على الشيخ ابراهيم المصري الشافعي من الجاوات، وخوَجَ منهم عدداً كبيراً، وكان هؤلاء يساهمون بعد تخرجهم بالتعليم أيضاً، سواء في مدارس الولاية وزواياها أو في

مالك والأجرومية والرحبية والسنوسية والجوهري والبهجة، وتطور الأمر الى دراسة موضوعات أخرى مثل الرحلة على الشيخ الصالح، والنحو والصرف والمعاني والبيان والحديث والتفسير والعروض على السيد زيني دحلان، ومع افتتاح مدرسة الشيخ العلامة رحمة الله الهندي، بدأ تعليم الحساب والمعاني والهندسة والمنطق، إضافة إلى النحو والصرف والتفسير والحديث والفقه وأصول التوحيد، ومع تزايد عدد الهنود الذين دخلوا المدارس والحلقات في الولاية، ادخلت مواد أخرى جديدة مثل علم الطب، وكان يدرسه احمد الحكيم الهندي، ثم أدخلت اللغة الإنجليزية في أواخر القرن الثالث عشر الهجري.

ويمكن التعرف إلى نوعية المواد وأسماء المدرسين في السنوات المتقدمة من القرن الرابع عشر الهجري، بمتابعة ترجمة السيد حسن طيب المغربي، الذي أورد أسماء أساتذته في عام ١٢٣٠ هـ/ ١٩١١ م، فقد درس على الشيخ الحضرمي علم التجويد، والشيخ ابراهيم بيزري، والشيخ احمد الميرغني علم الفقه، وعلى الشيخ المغربي والتعالبي علم الحديث والتفسير، وعلى الشيخ التميمي المناسخت، وعلى الشيخ الملا ابراهيم الكوراني علم الحكمة، وعلى محمد شفيق الهندي علم الهندسة، وعلى محمد الشلبي علم الميقات، وعلى الشيوخ التالية اسمائهم في مفردات العلوم: البابلي، باقشير، الكردي، الجمال، الفيومي، باحاج، القشاش، المراتب المغربي، البرزنجي، الغصين، الديري، الطنجي، الزبيدي، المغربي.

(ت سنة ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨ م) والذي بقي في الهند مدة تزيد عن الخمسة والعشرين عاما للدراسة والتدريس، ويذكر أيضاً أن أحمد العطار، وهو هندي الأصل، رحل إلى الهند مراراً ليأخذ العلم عن علمائها في العربية، كذلك الحال مع يوسف البنغالي، والذي ذهب إلى الهند أيضاً أكثر من مرة.

وقد عرف في الحجاز تعليم متميز يرتبط بالتجارة، أملت الحاجة إلى تدريب التجار المبتدئين وتعليمهم في جدة، فيما يعرف باسم (البيوتات التجارية) وهي مدارس تعلم الطلبة الحسابات التجارية ومسك الدفاتر، وتهيء لهم التدريب الكافي، للخدمة في هذه البيوت، ليتمكنوا من ادارة اعمالهم التجارية. ومن أشهر البيوتات التجارية في بندر جدة، بيت الشيخ محمد بن حمد، وبيت آل الصبان، وذلك مع مطلع القرن الثالث عشر الهجري، وبيت آل عاشور، وهذه البيوت عادة ما تكون ملحقة ببيوت التجار أنفسهم، وتقع في الطابق الأول منها، حيث يقضي الطالب كل نهاره فيها، وهي لا تغلق أبداً، إذ يتناول التاجر الكبير طعامه مع طلبته وابنائهم، ولا تغلق هذه البيوتات التجارية حتى في أيام الجمع والإجازات. الا ان هذا النوع من التعليم لم يكن عاما في كل اطراف الولايات، واختص بجدة المركز التجاري المليء بالحيوية والنشاط والانفتاح على العالم.

ولا بد لنا من الإفادة مما يورده جلالة الملك عبدالله بن الحسين لصورة التعليم في الحجاز في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ان يرد في مذكراته خلاصة لأساليب

بلادهم بعد أن يعودوا إليها: يُذكر مثلاً أن السيد عبدالغني الجاوي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م، والسيد عبدالقادر مندلي الجاوي المجاور والذي قرأ على السيد بكري شطا، وانتفع منه جماعة من الجاوات، سافر إلى بلاد الجاوة والتحق بالتعليم هناك. وكان عبدالله بن عثمان يختص بتعليم الجاوات في مدارس الحجاز، فطلب إليه الجاوات أن يسافر إلى بلادهم للتعليم فيها ففعل، ورحل أيضاً إلى بلاد الجاوات معلماً السيد عمر العطاس، ومن الذين اختصوا

بتعليم الجاوات ايضاً الشيخ محمد شربيني الشافعي المصري، وكان للجاوات شيوخهم من أبناء بلاد الجاوة، ومنهم الشيخ محمد نور القطاني المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٥ م، ونور اسماعيل الخالدي، ومحمد بن علان، ومن الأمور الملفتة للانتباه أن عدداً كبيراً من الشيوخ والعلماء، كانوا يذهبون إلى الهند لأخذ العلم، ومنهم محي الدين البيشاورى، ومحي الدين السليماني، وحافظ عبدالله هندي، وعبدالحق هندي الاله آبادي، واحمد رضا البريلوي. فقد بدأ الإهتمام بنشر الكتب العربية ونشر اللغة نفسها في الهند، مما دعا إلى سفر بعض المعلمين من ولاية الحجاز إلى الهند، وبالذات إلى حيث "مطبعة الدكن" في حيدر آباد، فقد سافر المعلم محمد الشلبي إلى الهند، ومكث فيها أربع سنين، وأخذ عن جماعة من الهنود (علم العربية)، ويذكر من شيوخ الهند المعروفين بالإهتمام (بعلم العربية) محمد الفاكهي (ت سنة ٩٨٢ هـ/ ١٥٧٤ م) وهو المعروف بـ (شيخ الإسلام في الهند)، كذلك الحال مع أحمد الجوهري



وإنما هم من المجاورين الغرباء، وإن نسبة كبيرة منهم هم من المغاربة أو الحضارمة، وقد صار لهم نفوذ حقيقي ومؤثر لدى الرأي العام الحجازي. وأحياناً على السلطة في الحجاز، ومن الواضح أن هذا الجانب مهمل في الدراسة لتاريخ الحجاز الحديث، ولتأثيره على التعليم، وهو بلا شك بحاجة إلى دراسة واعية، تساعدنا على تفهم الاتجاهات الفكرية والاجتماعية، وتحليل المظاهر الدينية الاحتفالية في القرنين الأخيرين في الولاية.

لقد كان للصوفيين سنة (١٢٠١ هـ/ ١٨٨٢ م) (٢٧) زاوية في مكة وحدها، ولشيوخ هذه الزوايا مريدون وأصحاب وتلاميذ، ولهم مواسمهم واحتفالاتهم، التي أخذت تتزايد في القرن الثالث عشر الهجري، حتى طغت المظاهر الاحتفالية وغابت الصورة الدينية، التي تكمن وراء الفلسفة الصوفية، ومن احتفالاتهم المعروفة إحياء ليلة النصف من شعبان وليلة القدر، حيث تذبح الذبائح وتقدم الولائم وتوزع الحلوى، ويمارس كل شيخ منهم شعائره مع أصحابه ومريديه في مواكب كبيرة، تجتاز شوارع المدن وازقتها، وخاصة في مدينتي مكة المكرمة وجدة.

وللصوفية مراتب لا بد للمريد من التلاميذ من المرور بها، حتى (يلبس الخرق)، ويحصل على الإجازة، ومنها المصافحة والمشابكة، وقلعة الذكر، ولا نجد دراسة متخصصة تتحدث عن أصول هذه الشعائر ودلالاتها الاجتماعية والفكرية، إلا أن تفحصاً دقيقاً لأصول هؤلاء الشيوخ، وهم في غالبيتهم من المغاربة والحضارمة، وليريدهم وتلامذتهم، وهم على الأغلب من

التدريس وللمواد المطلوبة، ولنوعية الشيوخ الذين يتداولون التعليم في الولاية، حيث كان التدريس (صورة قديمة تقوم على إرهاب الطفل وخافته)، وكان من شيوخه في الطائف ومكة المكرمة، الشيخ ياسين البسيوني، والشيخ عثمان اليمني، وعبدالحق هندي، ونوري افندي الكردي، وهم أيضاً شيوخ والده الحسين بن علي، وكانوا يعلمونه الخط، وكان على الطالب أن يتعلم الخطوط بأنواعها: الثلث والنسخ والرقعة.

### دور الزوايا والطرق الصوفية في التعليم في الولاية

تجدر الإشارة إلى دور الزوايا في التعليم، والزوايا في الولاية كثيرة، وخاصة في مكة المكرمة، ويرد في السالنامات ذكر تفصيلي للزوايا ومواقعها في مكة، منها زاوية الشيخ عبدالوهاب الكبير، وزاوية عبدالوهاب الصغير، وابن علوان، والعباسيين، والعبادي والرفاعي، وامام تقي، وعلي البدري، وأحمد البدوي، وعبدالقادر كيلاني، وامام طبري، والشيخ السمان في المحلة الشامية عند باب الزيادة، وزاوية عادل في المحلة الشامية أيضاً، كذلك زاوية صاحب الجوهرة، وتاج الدين وشيخ مسافر والمحبوب وخالد ابن الوليد، وزاوية شاه محمود، وشهداء فتح، وسيدنا عمر الفاروق، والسيد الحداد، ومحمد بن عيسى ودلائل الخير، وبهاء الدين وشيخ هارون والشاذلي.

أما الطرق الصوفية في الولاية، فلحسن الحظ فإن كتب التراجم تحفل بمعلومات جيدة للطرق الصوفية فيها، وابتداء نلاحظ بأن أغلبية هؤلاء الصوفيين ليسوا حجازيين،

والمشابكة، عن الشيخ المغربي، وكان أبوه قبله في الطريقة. ومن الصوفيين المذكورين أيضاً يحيى الثعالبي (ت سنة ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م)، ومحمد حياني الذي أخذ الطريقة عن الشيخ الرحيم محمد السقاف والذي توفي سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م، فرحل إلى عدن، ولزم شيخه، فألبسه الخرقة وحكمه. أما محمد الشلحي (ت سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م) فقد لبس الخرقة على يد شيخه محمد بن علوي، ولزم شيخه فألبسه الخرقة.

ومن المكين الذين تذكرهم المصادر، شافعي سليل أسرة صوفية هو "علي القدس"، والذي تقوم أسرته بنظارة أوقاف زاوية أحمد البدوي في الجودية بمكة، وبرعاية زاوية علي البدوي في (شعب عامر) بمكة، وبخدمة ضريح الشيخ الشاذلي في (المحلة الشامية)، وهذه الامتيازات حصلت عليها أسرته من أمير مكة، بشكل براءات يحتفظون بها، تخولهم حق النظارة والحراسة.

ومن الصوفيين في الحجاز محمد عثمان الميرغني (ت سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م) وهو شيخ الطريقة الميرغنية، وقد لازم العلامة أحمد بن ادريس وأخذ منه الطريقة الصوفية الشاذلية، ومن الميرغنيين أيضاً جعفر الميرغني (ت سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م)، الذي أخذ الطريقة عن والده وتخرج عليه، ثم تبعه المريدون من أنحاء مكة على الطريقة الميرغنية، وكان الشيخ جان السلمي (ت سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٩ م) من الصوفيين على الطريقة النقشبندية، والشيخ عبدالعظيم مندورة (ت سنة

هذه الجنسيات، تشير إلى دوافع الحركة وجذورها الفكرية واهتماماتها. إن صورة أهل الحجاز الحقيقيين غائبة عن هذه الحركة، على الرغم من الانتشار الكبير للزوايا، والتي تحتوي على مكاتب ودروس للمريدين، ومع أن للصوفيين شيوخهم ومواقعهم الاجتماعية والدينية المؤثرة، إلا أن هذا الأمر انحصر في بيئات محددة، إذ لا نعرثر على زوايا خارج حدود مكة وجدة، ولا ترد أسماء لحجازيين بين الشيوخ الصوفيين أو بين تلامذتهم، وخاصة بين القبائل الحجازية المعروفة، وهي مسألة ملفتة للانتباه، إلا أن هذا الأمر لا يجعلنا نستبعد دور هذه الطرق وتأثيرها على التعليم والثقافة والاتجاهات الفكرية والدينية في الحجاز، فقد قام أمراء مكة بمنح البراءات والعقود لبعض الأسر المكية، لتقوم بحراسة هذه الزوايا وخدمتها، ولا يمكننا أن نجزم بمدى التأثير الذي مارسه بعض هذه الرموز الصوفية على المتعلمين من أبناء الحجاز أو القائمين على التعليم، وهي مسألة لا يجوز البت بها أو الغاؤها ما لم تتم دراسة موضوعية واعية لهذه المسألة.

تذكر الطرق الصوفية في الحجاز مبكراً، فقد كان أحمد الواعظ مثلاً في (سلك الصوفية) و (تسلك) على السيد الشيخ سالم شيخان، وصفي الدين أحمد القشاش وصحبه، فأجازوه، ويفهم من هذا، أن على المريد أن يمر بمراحل حتى يأذن له شيخه بممارسة الشعائر، والانضمام إلى الطريقة، وقد أخذ أحمد بن شيخان (ت سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م) (الطرق المسلسلة) ولبس الخرقة وقلعة الخرقة والمصافحة





وصاحبها يدعى أحمد نصرة، لكننا لا نعثر على أخبار كثيرة لأصحابه.

يتضح مما سبق أن الهنود والحضارمة والمغاربة هم أصحاب هذه الطرق أصلاً، وإن تلامذتهم هم أيضاً من أبناء هذه البلاد المجاورين بمكة، ومن الصوفيين المعروفين في الحجاز السيد عبدالرحمن المحجوب المغربي، ومن تلاميذه السيد حسن طيب (ت سنة ١٢١٠ هـ / ١٨٩٢ م) والشيخ محمد الفاسي، ومن تلاميذه السيد صادق السندي، والذي بنى زاوية في (سفالة) بعد أن أجازته استاذته، فاجتمع له عدد كبير من المريدين، أما الحضارمة من آل عطاس، فقد إمتد نشاطهم خارج مكة، وذهب اليهم المريدون في حضرموت، ومنهم أبو بكر بن عبدالله العطاس المقيم بمكة.

ويبدو أن الانتقال من طريقة إلى أخرى كان سهلاً وميسوراً وممكناً، فقد تسلك عبدالله بن عثمان (ت سنة ١٢٢٤ هـ / ١٩٠٦ م) في الطريقة الخلوتية والطريقة النقشبندية والطريقة الشاذلية، وهو أمر يصعب تفسيره، إلا أننا لا نجد الكثير من مثل هذه الحالات، وبصورة عامة فقد اقتصرَت هذه الطرق على المجتمع المكي فقط، وتجاوزته إلى مجتمع مدينة جدة، حيث وجدت زاوية للسيد البدوي فيها، وأخرى للطريقة الشاذلية وثالثة للطريقة الجيلانية، في حارة الشام، ورابعة تعرف بزاوية العبدروس في المنطقة المسماة بالعبدروس، لكننا لا نجد ذكراً لأصحاب الطريقة فيها، وفيما عدا جدة، فإننا لا نجد ذكراً لمثل هذه الطرق أو الزوايا في أنحاء الحجاز الأخرى. كان أهل الطرق الصوفية وحتى مطلع

١٢٣٥ هـ / ١٩١٦ م) شيخاً للطريقة النقشبندية، ويبدو أن للطريقة النقشبندية كثير من المريدين، وأنها تعرضت للتجديد، وعرف أصحابها من المجددين، "بأصحاب النقشبندية المجددية": ومنهم صالح الزواوي (ت سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م) وهو شافعي، أخذ هذه الطريقة عن الشيخ محمد مظهر، وهو كما يبدو صاحب هذه الطريقة المجددية، وصار خليفته.

ويبدو أن الطرق الصوفية شهدت انتشاراً بين فئات معينة فقط، وقد عرفت نساء الحجاز الطرق الصوفية، ومن بين هؤلاء (فاطمة الزبيرية) والتي سمعت من العلماء المكيين وأجازتهم وأجازوها، وأخذت الطريقة النقشبندية والقادرية، وأرشدت النساء إلى أصولها.

ومن الطرق الصوفية التي تذكر في المصادر الحجازية، "الطريقة الأحمدية"، نسبة إلى أحمد النحراوي (ت سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤) وهو شيخ الطريقة في زمنه، والنحراوي ليس من أهالي الحجاز، وإنما قدم إليها سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ م، "والطريقة الشاذلية"، وأصحابها من أهل فاس، ومن الشاذليين المعروفين أحمد الحضراوي (ت سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م) والذي أخذ الطريقة عن الشيخ الفاسي، "والطريقة الجشتية"، وتنسب لأصحابها سعد الدين الجشتي، وهو هندي قدم إلى مكة وجاور بها، ومن أشهر أصحاب هذه الطريقة أمداد الله الحنفي الهندي، ويبدو أنه كان للهنود أكثر من زاوية في مكة، ومنها زاوية الشيخ عبدالوهاب اللاهوري المتصوف، ومن الطرق الصوفية أيضاً، "الطريقة الخلوية"

دراسة تحليلية لا تتوفر لدينا الآن.

### المطابع والصحافة في ولاية الحجاز

لا نجد معلومات مبكرة للكيفية التي دخلت فيها المطابع إلى الولاية، ولا إلى نوعية المطابع أو عددها، لكننا نعرف بالتأكيد أنه في سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٢ م كانت هناك مطبعة يديرها معاون ومدير وستة من المصححين (مرتّب). وتذكر سالنامة سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م أن عدد المرتبين في تلك السنة في مطبعة الولاية كانوا ثلاثة فقط، (مدير معاون، ميكنست، مكتوبجي، مصحح عربي)، أما إذا أخذنا بالأرقام التي توردها سالنامة سنة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م، فإن عدد الموظفين في المطبعة تزايد إلى (١٨) موظفاً، منهم ثلاثة مصححي خط عربي، ويبدو أن الخبرات الفنية في عملية الطباعة كانت تأتي إلى الحجاز من مصر، فقد رحل أحمد الفطاني إلى مصر، وعمل هناك في إحدى المطابع، وكان ذلك قبل عام ١٢٧٠ هـ / ١٨٧٥ م، ويبدو أيضاً أن المطابع بمكة كانت بالحرف العربي والحرف الجاوي، وهو أمر مقبول، إذا ما تذكرنا الحضور الكبير للجاوات، والانفتاح الثقافي الواضح بين الولاية وبلاد الجاوة. أما أول مطبعة أهلية دخلت الحجاز، فكانت في مكة، واسمها (شمس الحقيقة) وذلك سنة ١٢٢٧ هـ / ١٩١٣ م، استقدمها الشيخ محمد ماجد الكردي، ثم اشترى بعدها مطبعة أخرى جديدة أسماها (المطبعة الماجدية)، إلا أنه وجد صعوبة كبيرة في عملية نقلها، عبر وسائل المواصلات المتوفرة، حيث تطلب نقلها على ظهور البغال، واستقدم عمالاً لادارتها، والزم ابناءه بتعلم صف

القرن العشرين، يخرجون في مواكب احتفالية كبيرة، ويمارسون شعائرهم بالغناء والتطيل ومعهم شيخهم، وكان لكل طريقة كتبها الخاصة بها، والتي يقوم شيوخها على تدريسها لتلاميذهم ومريديهم، ولهم مكتباتهم الخاصة أيضاً، ولهم مغنوهم (الذين يتعاطون الإنشاد عند أهل الطرق)، ويبدو أن هذا الأمر انتشر في مطلع القرن العشرين بين الرقيق في مكة، فكان هؤلاء من أهل الزار، حيث فقدت الطرق الصوفية اهتمامها بالدراسة والتدريس والتفتت إلى الشعائر الاحتفالية، فسهل انتشارها بين الجهلة والرقيق، فأخذوا يلبسون ملابس خاصة، ويرقصون بطرق معينة، وأخذت النساء يلبسن ملابس شبيهة بملابس الرجال لممارسة الزار في احتفالاتهم.

إن انتشار الطرق الصوفية في الحجاز، وبالذات في مكة وجدة، ظاهرة تحتاج إلى دراسة، ولا بد من التأكيد على الدور الذي لعبه مشايخ الصوفية مثل آل الحضراوي في التأثير على أساليب الحياة الثقافية في الحجاز، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الطرق لم تمس كافة قطاعات المجتمع الحجازي، ولم تدخل إلى الحياة القبلية في الحجاز، لكن الصورة العامة تشير إلى انتشار الزوايا والطرق الصوفية والمكتبات الخاصة بهم، وإلى أن الغرباء والوافدين إلى مكة هم أصحاب هذا الاتجاه - ومع اننا لا نستطيع تحديد مدى تسربها إلى التعليم ومناهجه والقائمين عليه، إلا أن مثل هذا التأثير غير مستبعد، ذلك أن المجتمع الحجازي عرف التصوف منذ زمن بعيد كما لاحظنا، إلا أن مثل هذه الأحكام بحاجة إلى



الأحرف وآلية العمل في المطبعة وعملية ادارتها.

ومن المطابع المعروفة في ولاية الحجاز، مطبعة محمد سرور الصبان، وهو سليل أشهر البيوتات التجارية في جدة، وقد طبعت فيها أول صحيفة حجازية واسمها (بريد الحجاز) والتي أصبح أسمها فيما بعد (صوت الحجاز)، أما صحيفة بريد الحجاز، فقد أصدرها الشيخ محمد صالح ناصيف، وهو من أكبر أثرياء تجار جدة وكان ذلك في الفترة التي تولى فيها الملك علي بن الحسين ابن علي مملكة الحجاز، وتحولت الصحيفة في العهد السعودي إلى صحيفة (صوت الحجاز). ولا نجد إشارات واضحة وصريحة إلى وجود دور نشر معروفة وكبيرة في الولاية، ويبدو من الصورة العامة السابقة، انه تتوفر للولاية مطبعة، ولكن امكانية النشر والإزدهار الصحفي لم تكن متوفرة، واقتصرت على عدد محدود من الصحف التي ذكرناها. ولا بد لنا من الإشارة إلى مطبعة عرفت باسم (مطبعة رمزي) طبعت فيها صحيفة بريد الحجاز أحياناً، وأخيراً، فقد عرفت الحجاز الطباعة الحديثة بتأثير من الاحتكاك بالصحافة المصرية، وقد تم استقدام مطابع من مصر أولها المطبعة السلفية، والتي عرفت بطباعة ونشر المصادر التراثية بأسعار مقبولة، وكان لها دورها المميز في هذا المجال.

### المكتبات في ولاية الحجاز

واستكمالاً للصورة السابقة للتعليم في الولاية، لا بد لنا من الإشارة الى مكتبات الولاية سواء منها الرسمية أو الأهلية، ويبدو

أن تنافساً واضحاً في اقتناء الكتب ظهر في الولاية في مرحلة ما، أدى إلى زيادة ملحوظة في أعداد المكتبات الخاصة، وخاصة في مكة المكرمة وجدة، إضافة إلى مكتبات المدارس التي تذكرها السالنامات وتحصى أعداد كتبها. تذكر سالنامة سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م، ان في المدينة المنورة وحدها (٢٢٩١٤) كتاباً، موزعة ومصنفة، ما بين كتب شيوخ الحرم والمجاورين وكتب المدارس الشاكرية، ومنها ٥٠٠ كتاب في (الكتب خانة).

أما المكتبات الخاصة فمعروفة في جدة ومكة، ومن مكتبات البيوتات المكية، مكتبة آل الطبري، والخطاب والمفتي وجار الله، ومكتبة المفتي محمد جارالله بن ظهيرة وأبناء المفتي الشيخ علي، والملا علي القاري، والقبطي، ومكتبة آل علان، والشيخ عبدالرحمن المرشدي، وابنه الشيخ ضيف الله والعفيفي والكاזורيني، وكتب آل فروخ وبيت عتافي زادة والبيرري وبيت العجمي، وبيت الرئيس والقلعي، وسنبل والميرغني والشيخ عبد الصمد الفتني الهندي الاصل، وهذه المكتبات الخاصة كانت مفتوحة لمن أراد الانتفاع بها، وقد بقي بعضها للآن، وتعرض بعضها الآخر للحريق مثل كتب آل الميرغني وآل رواد، في حين اشترى الهنود مكتبة آل الرئيس وآل زرعة.

ويبدو أن أهل الحجاز تنافسوا في اقتناء الكتب والمخطوطات الثمينة، وفي زيادة مقتنياتهم، يذكر أن عبدالرحمن سراج مثلاً، كان (يطلب الكتب الثمينة من البلاد الشاسعة، وينسخ عدداً منها بخط يده) كذلك الحال مع الشيخ عباس يوسف

أنحاء العالم الإسلامي، ساهمت في اغناء الحياة الفكرية والعلمية فيها، ونأمل أن تجد الدراسات الموسعة طريقها إلى هذا الجانب، لابرار صورة الإنسان الحجازي ومشاركته في الفعاليات الثقافية والفكرية في الولاية، استكمالا للصورة العامة والتي لم تعط الاهتمام الكافي في الدراسات التاريخية حتى الآن.

#### مصادر الدراسة

- ١ - سالنامات ولاية الحجاز، نسخة مايكروفيش، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، للسنوات: ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م، ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م، ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م، ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م.
- ٢ - ابن فرج، عبدالقادر بن احمد، السلام والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق وترجمة ودراسة احمد بن عمر الزيلعي، وريكس سميث، طبعة أولى. (لا يوجد تاريخ طباعة او مكان نشر).
- ٣ - أبو الخير، الشيخ عبدالله مراد، نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر، اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي، مطبوعات ناد الطائف الأدبي ج١ - ج٢، ط١. ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.
- ٤ - المغربي، محمد علي، اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، ج١ - ج٢، دار تهامة، ط١. سنة ١٣٠١ هـ - ١٤٠٠ هـ / ١٨٨٣ م - ١٩٨٠ م.
- ٥ - الانصاري، عبدالقدوس، موسوعة تاريخ مدينة جدة، م١، جدة، سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م.
- ٦ - زيني، دحلان أحمد، امراء البلد الحرام، الدار المتحدة للنشر، بيروت.
- ٧ - الملك عبدالله بن الحسين، مذكرات الملك عبدالله، ط٤، المطبعة الهاشمية، عمان.

القطان، والذي حاول بناء مكتبة في الموضوع الذي ولد فيه الرسول (ﷺ) في (سوق الليل) واشترى لهذا الغرض مكتبة اصهاره آل الكردي، والمعروفة (بالمكتبة الماجدية). والتي تعود للشيخ محمد ماجد الكردي، وهي مكتبة غنية بالمخطوطات والمطبوعات الثمينة في التفاسير والأحاديث الدينية وكتب الفقه واللغة ودواوين الشعر والتراث، وتتميز بالذات بكتب التفسير المخطوطة والتي جمعها من أنحاء العالم الإسلامي.

ومن المكتبات المعروفة في مكة، مكتبة الوالي محمد رشدي الشرواني (ت سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م) والتي أوقفها على المدرسة الكائنة في (باب ام هانئ)، وهي مفتوحة للناس حتى اليوم الحاضر.

أما في جدة، فقد جمع التجار الأثرياء المكتبات الكبيرة الخاصة، ومن أشهرها مكتبة الشيخ محمد سرور الصبان، وتضم خمسة آلاف وستمئة وسبعين كتاباً، و (٢٠٣) مخطوطات ثمينة، هي الآن من مقتنيات مكتبة جامعة الملك عبدالعزيز، كذلك الحال مع مكتبة محمد حسين ناصيف في جدة، التي امتلكتها الدولة أخيراً.

ان المكتبات الرسمية في الولاية ارتبطت بالحرم الشريف، والمدارس، وقد ذكر لمكتبة الحرم الشريف موظفين لهم رواتبهم الشهرية، ومنهم شكري كتبخانة (ت سنة ١٢٠٤ هـ / ١٨٨٦ م) الذي ترجمت له الكتب الحجازية باعتباره من أشهر العاملين في المكتبة المذكورة.

ان الخصوصية التي تميز هذه الولاية، والفعاليات التي تهاقت عليها من مختلف